القسم الثالث

خطوات عملية في الطريق لوحدة الأمة الإسلامية

١ - جغرافية الانبعاث في ضوء عصر الشتات.

٢ - خريطة ثقافية للعالم الإسلامي

٣ - تقويم حصادنا الأكاديمي وتفْعيله.

٤ - وسائل لتوظيف البحوث العلمية.

٥ - إنشاء دور نشر كبرى عالمية

٦ - هيئات للنقد الذاتي وإحياء الأخوّة والمؤاخاة.

٧ - فقه القرآن مع حفظه.

٨ - جمعيّات لمحاربة اليأس وزرع الأمل

٩ - تحجيم مشكلات الماضي.

١٠ - مشروع إسلاميّ عالميّ لدمج الثقافات القومية

جغرافية الانبعاث في ضوء عصر الشتات

في كلّ القرون كان اليهود موزعين في الأرض، وحتى في تلك الفترات القليلة جداً التي كانت لهم فيها شبه دولة، مثل أيام يوشع [١]، (فتى موسى) - عليهما السلام - أو كانت لهم فيها دولة مثل أيام داود، وسليمان [٢]، (عليهما السلام) كان اليهود - كذلك - موجودين بأعداد متفاوتة في عدد من البلاد المسكونة في تلك القرون.

- وهاهي أرض (ميعادهم المزعوم) قد قامت في عصرنا، وهاهم يبيدون الشعب الفلسطيني ليستكملوا تحقيق حلمهم في السيطرة العالمية.

ومع ذلك فليس ثمة تخطيط لديهم لترك مواقعهم المتمركزين فيها في أمريكا أو دول أوروبا المختلفة.. أو بقية دول العالم، والتجمّع الكامل في فلسطين!!

- فماذا تفيدنا هذه الحقيقة في واقعنا المعاصر.. حضارّياً وثقافيّاً؟

إن هذه الحقيقة تفيدنا في مواجهتنا الصريحة لواقعنا المزق سياسيّاً عبر العالم - أكثريّات أو أقليّات - فهذا الواقع الذي يأسى له كثير من الناس فيحزنون عليه، يمكن أن يتحول إلى وسيلة قوة، ويمكن أن يتحول المسلمون إلى أدوات ثقافية فاعلة - عبر العالم - إذ ما أحسن توجيهه وتوظيفه؛ سواء من منظمّات دوليّة رسميّة أم شعبيّة كمنظمتي المؤتمر الإسلامي ورابطة العالم الإسلامي، أم من جهات محليّة في

(١) انظر سفر يشوع ص ٢٣٧ ط١ دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط

(٢) انظر سفر صمويل الأول ، والثاني ص ٤٥٦ ومابعدها (الإصحاح التاسع عشر ومابعده).

العالم تكون مؤهلة لكي تمد إشعاعاتها الثقافية والدعويّة إلى المحيط القريب منها، بحيث تشكل كل منها دائرة ثقافية تتجاذب وتتقارب مع الدوائر الثقافية القريبة منها، فتُقوي كلّ منهما الأخرى، وتتفاعل معها!!.

إنني أعترف هنا أنّ هذا الهاجس خطر لي عندما قرأت هذا النص الذي سأنقله من (برتوكولات حكماء صهيون) مشيراً إلى أنه سواء صحّت نسبة سند البروتوكولات إلى اليهود أم لم تصحّ (وفي رأيي أنها صحيحة جداً، ويدعمها الواقع المعاصر تماماً) فإن هذا لا يمنعنا من أن نقف طويلاً عند هذه البروتوكولات، وأن نعرف مما تقدمه من معلومات ثمينة، كيف يُدار عصرنا من خلال سيادة مركزية سياسية واقتصادية وثقافية في إطار واحد، توجهه لصالح الجماعة اليهودية وأهدافها.

إن النص يقول على لسان اليهود - أو الصهاينة واضعي البروتوكولات:

«لقد ضمن اللّه لنا، نحن شعبه المختار His chosen people نعمة التشتت the gift of the dispersion وفي هذا التشتت الذي يبدو في عيون الناس جميعاً كسبب من أسباب ضعفنا تكمن كلّ أسباب قوتنا، لتتبع منه الآن أسباب قدرتنا على أن نكون نحن سادة العالم كلّه، ولم يبق شيء يحول بيننا وبين أن نبني فوق هذه الأسس التي أرسيناها» (١).

وهكذا يفيدنا هذا النص البروتوكولاتي - أننا في علاجنا للواقع الثقافي الإسلامي - يجب أن ننطلق من المتاح والممكن، مستفيدين مما هو كائن دون أن نقطع الأمل، والعمل للوصول إلى ما ينبغي أن يكون.

---

(١) بروتوكولات حكمان صهيون، البروتوكول الحادي عشر، الفقرة الأخيرة، ترجمة ودراسة علي الجوهري، مكتبة ابن سينا.

وأتخيل - في البداية - أن يقسم المسلمون في العالم إلى قارات ثقافيّة؛ قد تختلف عن القارات الجغرافية، فأنا أزعم مثلاً أن العالم العربي - من وجهة نظري - لا يمكن أن ينقسم أسيوياً وإفريقيّا - بل ينقسم إلى كتلة إسلامية ثقافية تملك إرادة التغيير، وتحاوله، وتسعى إليه، وتتقبل الانخراط في سلك العاملين له، في إحيائه وإحياء الأمة العربيّة والإسلاميّة من خلاله وكتلة أخرى تعيش ظروفاً مضّطربة تجعلها لا تستطيع اتخاذ قرار واضح في الوقت الحاضر، ومع ذلك، فمن الضروري الوقوف بجانب هذه الكتلة لتجاوز واقعها البعيد عن العمل الثقافي الإسلامي؛ عن طريق تشجيع التواصل الثقافي الإسلامي معها، من خلال مؤسساتها الثقافية الموجودة، والعناصر الشعبية، أفراداً وجمعيات، والمراكز التقليدية الموجودة فيها.

ونستطيع - بعد ذلك.. أن نَعُدّ (أفريقيا غير العربية) كتلة ثقافية واحدة، ونتعامل معها من خلال منظور الكتلتين اللتين أشرنا إليهما عند حديثنا عن العالم العربي.

وهكذا نفعل مع بقية أجزاء العالم من خلال تصور للأرضية الحضارية، والخلفيّة التاريخيّة، لكل منطقة، فمنطقة جنوب شرق آسيا لها خصوصيّة تختلف في مذاقها وعاداتها الاجتماعيّة عن العنصر الهنديّ الإسلاميّ..

وهكذا - على امتداد الأمة المسلمة - يجب أن تحترم الخصوصيات في إطار الثقافة والحضارة الإسلاميتين... وأيضاً ينظر إلى توحيد

القوى القادرة ثقافياً على الفاعلية وإرادة التوحد لتقود التغيير الشامل في محيطها.

٢ - خريطة ثقافيّة للعالم الإسلامي:

ومع ذلك؛ فمن الجدير بالذكر - قبل أن ندخل في التفاصيل - أن نشير إلى أننا - ونحن نستفيد من تجربة اليهود أو التجارب الأخرى - سوف نلتزم بغاياتنا الإسلامية الكريمة. ووسائلنا النبيلة، فالغاية عندنا لا تبرر الوسيلة، فوسائلنا لا بد أن تكون إنسانيّة وكريمة مثل غاياتنا، ونحن - في النهاية - أمّة الرحمة للعالمين، ولا نسعى لكي نكون سادة للعالم أو مستغلين له، فحسبنا أن نكون دعاة للحقّ والخيرَ والعدل.

وعندما توضع الخريطة الثقافيّة، سوف يُعرف من خلالها الأمراض الثقافية، ويعرف - بالتالي - مناطق القوّة الثقافيّة، وتعرف مناطق الضّعف، وتتخذ الأساليب الممكنة لتفعيل القوّة الأولى، وعلاج القوّة الثانية.

إنّنا نرى (مالك بن نبي) ينعى على المسلمين أنهم منذ خمسين عاماً يعرفون مرضاً واحداً يمكن علاجه، وهو الجهل والأمية، ويعقّب على ذلك بقوله: «لكننا اليوم أصبحنا نرى مرضاً جديداً مستعصياً هو (التعالم)، وإن شئت فقل: الحرفية في التعلم، والصعوبة كلّ الصعوبة في مداواته، وهكذا أتيح لجيلنا أن يشهد خلال النصف الأخير من القرن العشرين ظهور نموذجين من الأفراد في مجتمعنا: أولهما: حامل المرّقعات ذو الأطمار البالية، وحامل اللافتات العلميّة... (يعني شهادات الجامعة والدكتوراهات).. دون علم أو إبداع!!

وإذا كنا ندرك بسهولة كيف نداوي المريض الأول، فإن مداواتنا للمريض الثاني لا سبيل إليها، لأنّ عقل هذا المريض لم يتقن العلم ليصيّره ضميراً فعّالاً، بل ليجعله آلة للعيش، وسلماً يصعد به منصّة البرلمان، وهكذا يصبح العلمُ مسخاً وعملة زائفة غير قابلة للصرف، وهذا النوع من الجهل أدهى وأمر من الجهل المطلق، وهو يشكل أكبر خطر نعاني منه... إنه العلم غير الموظف.

فلا بد من إزالة هذا المريض ليصفو الجوّ للطالب العاقل الجاد، وعليه فإن مشكلة الثقافة لا تخصّ طبقة دون طبقة، بل تخّص مجتمعنا كلّه، بما فيه المتعلم، والصبيّ الذي لم يبلغ مرحلة التعلم، إنها تشمل المجتمع كله، من أعلاه إلى أسفله(١).

٣ - تقويم حصادنا الأكاديمي وتفعيله:

وإذا ذهبنا نترجم كلام مالك بن نبي إلى مشروع عملّي، في ضوء الخريطة الثقافيّة الإسلاميّة التي ألمحنا إليها، فإننا نجد أنفسنا مطالبين بإعادة تقويم إجمالي لحصادنا الأكاديمي في القرن المنصرم.... لنأخذ منه ما يمكن أن يستفاد منه - من جانب - ولنقّدم، من جانب آخر، نقداً موضوعياً لمسيرتنا الأكاديمية، يحملنا على تجاوز مرحلة الولع بالشهادات والألقاب العلميّة، التي لم يقدم كثير من أصحابها إسهاماً حقيقيّاً في دفع عجلة التقدّم... حتى في المجالات الفيزيائيّة، والزراعيّة، والتكنولوجيّة؛ فضلاً عن المجالات الإنسانية.

---

(١) مالك بن نبي - مشكلة الثقافة ص ٧٢ -٧٣، دار الفكر ، بيروت (بتصرف)

ومن جانب ثالث، كي نستطيع شقّ طريق جديد لعملنا وثقافتنا، يجعلنا نمزج بين العلم والثقافة، أي - بمعنى أوضح - ينزل العلم إلى مستوى التطبيق العملي، بحيث يُصحب كل عمل علمي بمشروع ميداني، مهما كان التخصص الذي ينتسب إليه صاحبه، إنسانيّاً كان أو ماديّاً... ولتقريب الصورة نقول: إنّ كثيراً من أعمال المستشرقين ثبت أنّها موظفة لخدمة أوطان المستشرقين وحضارتهم، توطئة - عن طريق تقديم الأرضيّة الثقافيّة والمعرفيّة - لغزو بلاد المسلمين وغيرهم، ولتخريب علاقة المسلمين بدينهم، من خلال تقديم فكر إسلامي يركّز على التصوف المنحرف السكونيّ، ويشكّك في كلّ مراحل الحياة الإسلاميّة وتطبيقاتها. ومصادرها ورموزها. وقد ساح كثير من المستشرقين في بلادنا الإسلاميّة قبل أن يكتبوا بحوثهم، وتعاونوا مع الأجهزة المعنيّة في بلادهم، وكانوا خير عون لها في تحقيق الأهداف الاستراتيجيّة.

- وللأسف فإننا لم نكتشف هذه الحقيقة إلا في العقود الأخيرة؛ أما هنا - في عالمنا الإسلاميّ - فإن بحوثنا الاجتماعيّة والإنسانيّة تنطلق من تجريد، وتنظير، وتنتهي إلى معرفيّة غير موظّفة لا تخدم الواقع في شيء، وتنام - بعد ذلك - الرسائل والبحوث العلميّة على رفوف المكتبات الجامعية، بعد أن يحصل صاحبها على اللّقب المنشود ويشقّ طريقه في الحياة مزهّواً باللّقب الذي يحمله!!.

والسؤال هنا: كم من الرسائل والدراسات كتبت جامعة بين التنظير والميدان، عن بلدان العالم الإسلاميّ، وعن الأقليّات، سكانيّاً، واقتصاديّاً، واجتماعيّاً؟

لقد وجدت وما زالت توجد حتى بعد سقوط الشيوعيّة والاتحاد السوفييتي، بلدان، وجماعات إسلاميّة لا يعرف عنها المسلمون شيئاً، وقد يعرفون عنها القليل عندما تتعرض لمحنة، وقلما نسبق نحن - القادرين المسلمين - أعداءنا إلى كثير من البلدان التي تحتاج إلى عون.. وقد أصبح يقال عنا: إننا نصل دائماً متأخرين، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه!!.

وبينما يقوم شبابنا بدراسات أكاديمية شبه محنّطة؛ تقوم المراكز البحثيّة في العالم المتقدّم بتقديم أُطروحات في مجالات تهّم أممها، ودراسات حيّة حافلة بأحدث المعلومات، هذه الأطروحات والدراسات تشق طريقها المعروف سلفاً إلى أصحاب القرار الحضاريّ وصانعي السياسية، ومن هنا توظف المعرفة عملياً، ويمتزج العلم بالثقافة. ويقع التفاعل والتغيير!!.

٤ - وسائل لتوظيف البحوث العلمية

وفي محيطنا الإسلامي، واستفادة من التجارب الأخرى، ووصولاً إلى الحلول العمليّة في مجال البحوث الأكاديميّة وغيرها، نقترح عدداً من الوسائل العمليّة المحققّة للوحدة الثقافيّة، ويُعد من الضروري التوجيه إلى تقديم أُطروحات وبحوث توحّد الأمة في الفكر والثقافة، ولا تعمّق خلافاتها، فما دام المسلمون جميعاً يؤمنون بالمرجعيّة الواحدة ممثلة في كتاب الله وسنّة رسوله (ﷺ) فلماذا لا نقدم بحوثاً بعيدة عن الالتزام المسبق بوجهة نظر أحاديّة، سلفيّة كانت أو صوفيّة، بحيث تعالج الأمور دون حساسيات مُسبقة في ضوء كتاب الله وسنّة رسوله، وفي ضوء الانتماء الأعلى لمصلحة الإسلام العليا وللأمّة الإسلاميّة

الواحدة، التي نشأت واحدة، بلا مذهبيّات وتمزيقات، وما انتصرت إلا بالتوّحد والتوحيد.

وفي ضوء هذه الموازين نفسها توجّه بحوث إلى الجمع بين أجناس الأمّة في أصلها - كلمة واحدة - وفي صناعتها للحضارة الإسلامية، فقد تبادل راية قيادة الأمة العرب - كطليعة - ثم قام الفرس والترك والأكراد والبربر بكثير من الأدوار التي لولاها لما واجهت الأمة فترات ضعفها وجحافل أعدائها، ولما انتشرت عقيدتها، وحضارتها في الأرض، وإنكار هذه الأدوار خيانة للحق والتاريخ.

وفي ضوء هذه الموازين - كذلك - توجه أُطروحات وبحوث لتوحيد الأمة على ثقافة الانتماء للإسلام الذي يستوعب الوطنيّة والقوميّة ويرشدهما، ويجعلهما من وسائل زيادة الفعاليّة والتوّحد، لا من عوامل التمزيق، وأنا هنا أشيد بالخطوات التي قطعها الحوار الإسلامي القوميّ في لبنان وغيرها؛ لأنه بدأ على أساس صحيح ندعو إلى أن يُحتذى في كل مجالات التوحدّ الثقافيّ والفكريّ الأخرى، وهذا الأساس هو قيام كل جماعة بتقديم (ورقة نقد لنفسها) - فكراً وتجربة - ثم يدور الحوار بعد ذلك - على ضوء الأوراق - وصولاً إلى القسمات المشتركة، وإلى طريق المستقبل وفقاً لخطوات محددّة ولو بدأ الأمكر بالعكس، أي بنقد كل فرقة للأخرى؛ لفشل التوجّه التوحيدي من أول لقاء.. وأيضاً: كانت المنهجيّة علميّة، وكانت هناك غايات عليا مشتركة تهيمن على اللقاءات تتصل بمصلحة الأمّة العليا، وبتمكينها من مواجهة التحديّات العالميّة.

ويُعَـدُ من الضـروري هنا - كـذلك - الإشـارة إلى الطابع الجـزئي والذري والافتراضي إلى كثير من البحوث المعتبرة التي قدمت في القرن الأخير، حتى أنه كان من علامات التوفيق للبحث - في رأي الكثيرين - أن تُوجُه البحوث إلى مجالات جزئيّة وهامشيّة ومجهولة وقليلة الاستعمال - أو الأهميّة المعاشيّة والعمليّة جداً، وقد حَفلتْ علوم اللغة والأدب والفقه بهذا اللون من البحوث، لدرجة أفقدت العقل المسلم والثقافة الإسلاميّة القدرة على تقديم تنظيرات شموليّة، ومذاهب علميّة في مجالاتها؛ ذات طابع شموليّ تجديديّ، كما فقدت القدرة على تطوير مواردها وتقديمها - بعد تبسيطها واكتشاف آليات معاصرة لها - للقطاع الأكبر من الناس، وللأسف فقد نجحت اللُغات الأخرى في أن يُقدمها أصحابها للناس في أجمل الصور، وبالتبسيط الممكن، وذلك على العكس من نصيب اللغة العربيّة المحدود في هذا المجال، كما أننا فوجئنا في الأدب والنقد بغزو المذاهب الهدّامة، ونحن عاكفون على دراسة جزئية جداً، مثلنا الأعلى فيها هو شيخنا الأخفش الذي مات وفي نفسه شيء من حتى!!

ولقد آن الخروج من هذا الواقع، وربط كل البحوث - حتى ولو كانت جزئيّة - بالنظريات والآليات والأهداف الكبرى، فهذه البحوث الممزقة الجزئيّة تعكس واقعنا الممزق الجزئي.

٥ - إنشاء دور نشر كبرى عالميّة:

ولعلّه من المفيد بل من الضروري - ولا سيّما في ضوء التحدّيات المعاصرة - أن ينشأ عدد معقول من دور النشر الكبرى - باللّغات

الإسلاميّة والعالميّة - تساعدها الحكومات، ويكون لها خطّ واضح وسياسة واضحة إسلاميّاً وحضاريّاً، وتدعم من الحكومات والمؤسسات التجاريّة ورجال الأعمال، وحبذا أن يكون فيه مجال للوقف الإسلامي... وتتولى هذه الدور طبع الكتب والمجلات الدوريّة بأسعار مقبولة مدعّمة، وفاقاً لخطّة واستراتيجيّة توازن بين التحدّيات والممكن.

وحسبنا هنا أن نشير إلى أن إحدى الهيئات العاملة في مجال التأليف والنشر في بلد عربي كبير يسوق الكتاب - أحياناً - بسعر أقل من نصف التكلفة الورقية، وأقل من ربع التكلفة الشاملة، مما يعني الدعم لهذه الهيئة من الدولة ومن غيرها، ولو ملك العمل لوحدة المسلمين الثقافية عدداً من هذه الهيئات لأمكن اختراق كثير من الحواجز.

كما أننا نشير هنا إلى بعض السلاسل الناجحة مثل (عالم المعرفة) التي تصدر عن وزارة الإعلام في إحدى بلدان الخليج العربي، ولو كانت هذه السلاسل المعرفية موظفة لخدمة الثقافة الإسلاميّة الموحدة والباعثة على النهضة، والمزيلة لألغام التفريق، والمؤصّلة لقواعد الوحدة والتوحيد، لحقّقت كثيراً من أهداف العرب والمسلمين، لكن المشكلة الأساسيّة في هذه الهيئات والسلاسل أنها تصدر - في معظمها - مشوبة بتوجيه تغريبي، أو على الأقل - عند حسن الظن - بتوجيه علمي غير غائي، وإن كنّا نعرف أنّ كثيراً من المسؤولين فيها والمستشارين لها هم - للأسف - من غلاة التغريبيين، وهذا ما يجعلها عبئاً على الأمة - ماديّاً وفكريّاً - فهي تهدم أكثر مما تبني، ويصدر عنها شرّ كثير وخير قليل .. وهذا يدفع دفعاً جميع الغيورين إلى إنشاء

البدائل لهذه المؤسسات التي لا تمثّل الأمة، بإسلامها وعروبتها، وإنما تمثّل أدلجة فكريّة ومذهبيّة ظرفيّة!!.

ونعتقد أنّ من أوجب الواجبات التركيز في النشر - خلال هذا الظرف الحضاريّ الذي نعيشه - على البحوث التي تقدّم الإسلام على أساس مبادئه الكليّة، ونظمه العقائديّة والمعاملاتيّة؛ سياسيّة واقتصاديّة، واجتماعيّة.

بالإضافة إلى تقديم كلّي لحضارة الإسلام، وتقديم موضوعيّ لتاريخ المسلمين يبرز صفحاته المشرقة الكثيرة، ويعالج بحكمة سلبيّاته التي تنتمي إلى عالم البشريّة. وصناعه ليسوا ملائكة ولا أنبياء، لكنهم - كما تثبت أي مقارنات حضارية - أعظم البشر بعد الأنبياء، وحضاراتهم الإسلاميّة حضارة إنسانيّة، علميّة، إيمانيّة، ربّانية، لم تعرف البشريّة لها نظيراً، ولم تعرف نماذج يقتربون من نماذج الصحابة والتابعين ومن سار على دربهم إلى يومنا هذا.. وإنّ البشرية في عصرنا أحوج ما تكون إلى قيادة هذه الحضارة إنقاذاً للإنسانية من حضارة القوّة والمادّة والعنصريّة وحروب الإبادة التي تمثّلها الحضارة الأوروأمريكيّة!!.

٦ - هيئات للنقد الذاتي وإحياء فريضة الأخوّة الإسلاميّة:

وقد ألمعنا في بداية حديثنا إلى ضرورة النقد الذاتي عن طريق قيام كلّ جماعة بنقد ذاتها حتى ترى الخشبة التي في عينها قبل أن تبصر القشّة في عيون الآخرين، وتعمى عن رؤية ذاتها وتفصيلاً لهذا الملحظ، وتحويلاً، إلى برنامج عملي يسهم في تحقيق الوحدة الثقافيّة والفكريّة وإحياء المرجعية الأصيلة والوحيدة للكتاب الكريم والسنّة الشريفة اقترح

- في إطار رابطة العالم الإسلاميّ - إنشاء هيئة لتوحيد الفكر الإسلاميّ على أساس الالتزام بالثوابت، وعلاج نقاط الاختلاف، بين عناصر الأمّة ومفكّريها، وذلك شريطة أن يكون هناك ممثلون للسلفيين، وللصوفيّة، وللشيعة - ولا سيما الزيّدية والاثنا عشريّة - ولبعض التوجّهات الفكرية لأهل السنّة، مثل تيارات العمل الدعويّ الفكريّ، والدعويّ السياسيّ، والدعويّ التربويّ، وغيرها...

وعلى هؤلاء السير على نهج (نقد الذات)، وصولاً إلى رؤية مشتركة تُقَدِّم لكلّ العالم الإسلامي، وسطيّةً إسلاميّةً ترجع إلى المرجعيّة التي لا يأتيها الباطل، وحبذا أن يخرج عن هؤلاء دستور للتوحّد الإسلامي، يشاع في كل بلاد المسلمين من خلال هؤلاء الممثّلين للأمة، خروجاً من مرحلة النية والصدام التي عشناها خلال القرن الماضي.

لقد عشنا القرون الأخيرة غافلين عن تشغيل ملكة نقد الذات... بينما تقدّمت أوروبا عندما أخفقت في الحروب الصليبية وأدركت أنه ليس بالحروب العسكريّة تقضي على الإسلام والمسلمين، وأدركت أيضاً أن الطريق لنجاحها يقتضي اقتباس ما عند المسلمين، واقتباس نظام الإسلام، دون اقتباس عقيدته وروحه، وأدركت ثالثاً أن هزيمة المسلمين تكمن في فصلهم عن الإسلام.

وفي مواجهتنا لأنفسنا أولاً، وللحضارة الأوروأمريكية ثانياً، ما أحوجنا إلى (مؤسسة نقد الذات) تتبناها هيئة أو هيئات إسلاميّة عالميّة، أو تتبناها إرادة شعبيّة.

وقد تعبنا دون نتائج من نقد بعضنا لبعض، لأن نقد الآخرين أسهل بكثير من نقد النفس، وذلك لأن الإنسان حين ينقد نفسه يقوم بدور الحَجَر والنَّحَّات في آن واحد، ولقلّة ممارسة النقد والمراجعة لدينا، فإن قليلاً من الأفكار لدينا يصمد إذا تناوله أي نقد سطحيّ، والغريب أن لدينا بعض المؤسسات والجماعات لا ترضى عن أي عمل أو فكر، وهي طول عصرها تنتقل من إخفاق إلى إخفاق دون أن يكون ذلك حافزاً لها نحو أي وقفة تأمل! إنها تملك مناعة خاصة ضد آلام التجربة [1]!.

أليس عجيباً أن يظلّ بعض المصريين على التشيّع لآل البيت - وآل البيت منهم براء - أعداء ثابتين لأبي بكر وعمر وعثمان وجمهرة كبيرة من الصحابة رضي اللَّه عنهم طيلة أربعة عشر قرناً؟!!

وأليس عجيباً أن تبقى بعض الطرق الصوفيّة عاجزة عن تقويم مسارها على هدي كتاب اللَّه وسنّة رسوله (ﷺ) مع أنّها تؤمن بهما وتتعامل معهما في كلّ يوم؟!!.

وأليس عجيباً ألا ينجح بعض المحسوبين على السلفيّة في نقد آليّاتهم، وفي الالتزام بالحكمة، وفي الحوار مع مخالفيهم من المسلمين، مع أنهم لا يستطيعون إخراجهم من الإسلام، كما أنه ليس من المصلحة إخراج المخطئين من الإسلام بل المصلحة تقتضي إيثار (الأخوّة الإسلامية) التي تفرض العمل على إنقاذ أخيك من النار والتواصي بالحق وبالصبر...؟!!.

---

(١) د. عبد الكريم بكار: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي - دار القلم - دمشق ص ٢٠ ، ٢١، ط١. ١٤٢٠ هـ.

إن جميع العاملين للإسلام يجب أن يضعوا موضع التطبيق العمليَ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[٦]، وأن يجعلوها دستوراً يتحركون من خلاله، وأن يعلموا أنّه لولا هذه المؤاخاة - في أروع صورها - لما استطاع مجتمع المدينة أن يتحرك كتلة واحدة في بناء دولة الإسلام الأولى، ومواجهة الكافرين من الخارج، والمنافقين من الداخل.

وعندما نضع هذه الآية الكريمة دستوراً لوحدة المسلمين الثقافيّة؛ مؤثرين الأخّوة على أي عصبيّة ستتوحد عقولنا وقلوبنا ومسالكنا، وصولاً إلى الوحدة الحقيقيّة الشاملة... نعم، فإن الإنسان بعقيدة واحدة يستدعي حتماً توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب واحد.

ووحدة العقيدة هذه تقتضي وحدة المجتمع...

- أجل: ولماذا لا تتوحد أيها المسلم مع أخيك؟

- إن خالقكما واحد، ومالكما واحد، ومعبودكما واحد، ورازقكما واحد.. وهكذا.. واحد، واحد، واحد، إلى أن تبلغ الألف، ثم إن نبيّكما واحد، قبلتكما واحدة، وهكذا... واحد واحد؛ إلى أن تبلغ المائة، ثم إنكما تعيشان معاً في قرية واحدة، تحت ظل دولة واحدة، في بلاد واحدة.. وهكذا واحد، واحد؛ إلى أن تبلغ العشرة.

فلئن كان هناك - إلى هذا القدر - من الروابط التي تستدعي الوحدة والتوحيد والوفاق والاتفاق والمحبة والأخوّة، ولها من القوّة

---

(٦) الحجرات: الآية ١٠.

المعنويّة ما يربط أجزاء الكون الهائلة، فما أظلم من يعرض عنها جميعاً ويفضل عليها أسباباً واهية؛ أوهن من بيت العنكبوت، تلك التي تولد الشقاق، والنفاق، والعداء.

وإن كنت تريد أن تعادي أحداً فعاد ما في قلبك من العداوة - على سبيل نقد الذات - واجتهد في إطفاء نارها واستئصال شأفتها؛ وحاول أن تعادي من هو أعدى عدّو، وأشد ضرراً عليك؛ تلك هي نفسك التي بين جنبيك، فقاوم هواها، واسع إلى إصلاحها، ولا تعاد المؤمنين لأجلها، وإن كنت تريد العداء أيضاً فعاد الكفّار والزنادقة، فهم كثيرون!!

وإن أردت أن تغلب خصمك فادفع سيئته بالحسنة، فبه تخمد نار الخصومة، أما إذا قابلت إساءته بمثلها فالخصومة تزداد[1].

وهكذا يملى علينا فقه آية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أن نحولها إلى برنامج عمليّ عن طريق هيئة مستقلّة ليس هدفها مجرد التقريب، بل هدفها إحياء ملكة النقد الذاتي، وتأصيل الحوار بين المؤمنين بالحب، وإحياء فريضة الأخوّة الإسلاميّة.

٧ - فقه القرآن - مع حفظه - من وسائل الوحدة الثقافية :

هناك أمور يجب أن نتجاوزها بعد أن ثبتت قلّة فاعلّيتها؛ ففي عصور السلف كان حفظ القرآن مقروناً دائماً بفهمه؛ حيث كانت اللغة العربية قريبة من الجميع: دلالات وجماليّات، كما كان الأسلاف حريصين على فقه القرآن وتدبّره والعمل به، ومضت حياة المسلمين في

(١) النورسي: المكتوبات، ص ٣٤١، ٣٤٣، طبع سوزلر الطبقة الثالثة، ٢٠٠١ م - مصر.

القرون التالية قريباً من ذلك، وكلّ من يحفظون القرآن، كانوا غالباً يقرنونه بدراسة بلاغته وبيانه وأحكامه التشريعيّة وعظاته وعبره وتفسيره من وجوه شتّى، واذكر وأنا طالب في الثانوي الأزهري أني فهمت قضايا البلاغة والنحو من خلال درس التفسير والحديث - تطبيقاً - أكثر مما كنت أفهم هذه العلوم مجردّة بعيدة عن القرآن.

ولا نستطيع أن نتجاهل أنّ الجامعات الإسلامية ومعاهدها قد اقتحمتها مجالات معرفيّة على حساب العلوم الشرعيّة حتى تعرّض حفظ القرآن بدوره لتراجع كبير، ولا نستطيع أن نذكر أن الكتاتيب ومدارس تحفيظ القرآن تقف وراءها جهود مخلصة إخلاصاً شديداً... لكن استمرار الوضع على هذا النحو لم يعد مقبولاً، حتى علم التجويد، مع احترامنا له.. لا يُغني عن ضرورة الترابط بين حفظ القرآن وفهمه وفقه بيانه وأحكامه ومعانيه حسب طاقة كلّ حافظ وعمره العقليّ!!.

ويذكر الشيخ محمد الغزالي أن هذه الطريقة في الحفظ لألفاظ القرآن وسوره قد صرفته عن معان كثيرة، حتى وهو كبير، لأنه ألف أن يحفظ الكلام دون فهم للمعنى، وألف أن يغلب الحفظ التدبر وإحسان الوعي لمعاني الكتاب الكريم، لدرجة أنه أشار إلى نتيجة لا نوافقه عليها، كما أنه هو نفسه قد طلب الرأي فيها من الآخرين، حتى لا يظلم هؤلاء المخلصين الذين ينشطون في مجالات تحفيظ القرآن، وهذا الرأي الذي أشار إليه الشيخ ذكر فيه أن بعض الكتاتيب أساءت إلى القرآن من حيث تريد الإحسان، وأنها خَرَّجت أشرطة مسجّلة، ولم تخرج كيانات حيّة للناس... ثم تساءل الشيخ الغزالي، ما قيمة حفظ

الألفاظ إذا كنا سنقتصر عليها ونقدم للمجتمع ببغاوات تجيد - إن كانت صيّتة - موسيقى الأداء، وإن كان غير صيّته تجيد الحفظ العادي، وينتهي الأمر؟

أرى أن الأمر يجب أن يطرح، وأن يكون موضع مراجعة، وحوار، ومناقشة، وأخذ ورد، من قبل متخصصين في التربية وعلم نفس الطفل، لأني في الحقيقة كاره لهذه الأشرطة، التي تجعل الناس يحفظون ولا ينتفعون.. وفي الوقت نفسه أحب بقاء واستمرار التواتر القرآني، فهل في الإمكان أن يحفظ الطلاب قطعاً من القرآن الكريم وأن يُقرَّب لهم المعنى نفسه [١]؟!

إن المسلمين اليوم - فتياناً وشباباً - يلزمهم أن يعيدوا النظر باستمرار في طريقة توفير القرآن إلى الطلبة والأطفال وإعمار قلوبهم وعقولهم بالمعاني الإجمالية التي تتناسب مع عمرهم العقلي، وتعويدهم البحث في معنى الألفاظ وما وراء الألفاظ، وما أظن الصحابة رضوان اللّه عليهم، كان عندهم عدد كبير من حفّاظ القرآن... ربما كانوا نسبة قليلة في المائة... ولعل الأمر الأكثر بروزاً عندهم، كان تمثل المعاني وترجمتها إلى واقع، على الرغم من كثرة الحفظة وكتاب الوحي... وهذا الفهم لكتاب اللّه - مفردات ومعان إجماليّة - هو ما نفقده اليوم.

ولكي نعود إلى ديننا، لا بد أن نعود إلى القواعد التي انطلقنا منها قديماً... فعمر رضي اللّه عنه، الذي يقول لقائده... (متى استعبتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) فاهْمَ للقرآن... وعمر الذي يقول

---

(١) محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن ص ٣٢- ٣٣، دار الوفاء، ط ٤، ١٤١٤، مصر.

(لو عشتُ لهم لوصل إلى الراعي في صنعاء حظه من هذا المال)... (ما أحد أولى بهذا المال من أحد)... إنه فاهم للقرآن [١] فبفقه القرآن... وحفظه فتحوا العالم.

وهذا يوجب علينا في رابطة العالم الإسلامي وغيرها - كما أنشأنا هيئة لرعاية المساجد، وهيئة لرعاية المدارس الإسلاميّة - أن ننشئ هيئة - بل هيئات - لتطوير الكتاتيب ومدارس تحفيظ القرآن (فضلاً عن إنشاء المزيد منها) بحيث يجمع الحافظون للقرآن بين الحسنيين، وكما كان هذا الفهم للقرآن، فهماً أدى إلى حسن تدبره وتمثله والسير على هديه في الحياة - من وراء انطلاقة المسلمين الأسلاف، فإننا نأمل أن ننطلق به - ومنه - في عصرنا الحديث لإنقاذ المسلمين والإنسانيّة، ولن يتحقّق ذلك إلا بالجمع بين الألفاظ - ولو كان أقلّ مما ألفناه - والفهم والتدبير والعمل... فالقرآن، كان - وسيبقى - ضمير المسلم وعقله ودليل تفسيره للحياة والإنسان والكون، ومنهجه في التعامل مع أخيه الإنسان، ومع اللّه...

كما أن الكتاتيب - شكلاً - تحتاج إلى تطوير يليق بكتاب اللّه وتلامذته، وكذلك يحتاج القائم على الكتاب إلى تغيير أساليبه، في ضوء التطورات التربوية، وهذا ما تقوم به المؤسسات راعية تطوير الكتاتيب ومدارس تحفيظ القرآن، واثقين من أن الالتقاء على فقه القرآن وتفعيله في حياتنا من وسائل الوحدة الإسلاميّة العقدية.

---

(١) محمد الغزالي: المرجع السابق، ص ٤٣، ٢٢٣.

٨ - جمعيّة محاربة اليأس وزرع الأمل والعمل:

يرى الداعية الإسلامي التركيّ الكبير بديع الزمان سعيد النورسي، أن إخفاق المسلمين في القرون الأخيرة، يرجع إلى ستة عوامل، ويرى أن تغيير هذه العوامل إلى ضدها هو الطريق لبعث الأمة الإسلاميّة وتحقيق نهضتها، وهذه العوامل هي (اليأس) و (موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية) و(إيثار المصلحة الخاصّة) على المصلحة العامة، و(حب العداوة)، و (الجهل برابطة الأخوة الإسلاميّة النورانيّة)، و(سريان الاستبداد في حياتنا الاجتماعيّة، والسيّاسيّة) [١].

فنحن نرى أنّ اليأس كان السبب الأول في خمولنا ولجوئنا إلى الانعزال والتخدير السكوني الصوفي، وما زال حتى اليوم يعمل عمله فينا عندما نواجه اختباراً من الاختبارات.

وبعض الناس قد نفضوا أيديهم من الأمل، والعمل بحجة أن معظم الحكام المسلمين قد تخلّوا عن الأمّة لحساب أعدائها، وأنّ الصهيونيّة وأمريكا قد ملكا العالم، ناسين أنّ هذا لو وقع لكان تدميراً للإنسانيّة، ونهاية للدنيا بنص القرآن الكريم؛ كتاب اللّه الذي يقول فيه سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢]، وناسين كثيراً من الآيات والأحاديث التي

---

(١) انظر: صيقل الإسلام، ص ٤٩٢ ومابعدها نشر سوزلر، ط٣، مصر ٢٠٠٢.

(٢) سورة يونس: اية ٢٤.

تزرع الأمل وتحثّ على العمل. وأنّ المسلمين قد مرّوا - وهم صحابة رسول اللّه - بمحن كثيرة ولكنهم لم ييأسوا من رحمة اللّه، وكان اليأس عندهم دائماً قرين الكفر والنّفاق، ولعلَ ما أصابهم في أُحد والخندق ومؤتة كان من أقوى الاختبارات، ومع ذلك ظَلوا يؤمنون بأنهم مبتعثون لإخراج العباد من جور الأديان إلى عدل الإسلام، ولهذا صبروا وصابروا و رابطوا واتّقوا اللّه، واثقين من نصره فغربت على أيديهم شمس الحضارة عن المدائن والقسطنطينيّة لتشرق في مكّة والمدينة وجزيرة العرب، وهذا يملي على الذين يسارعون إلى اليأس، وعلى جميع المسلمين كذلك أن يُدركوا أنّ التاريخ ليس سجل معارك حربية منفصلة أو منكسرة، قدر ما هو سجل مستويات عقائد وأخلاق، وقدرة على تطويع الحياة للقيم الرفيعة.. وأباؤنا الأوائل نماذج عمليّة لذلك كله.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أنّ الفتن في حياة الأفراد والجماعات شيء لابد منه، وهي سنّة إلهية ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾[١]، ومواجهة هذه الفتن لا يكون بالاستسلام واليأس، بل باليقظة والرشد، وإلغاء كلمة المستحيل، ونشر أشعة الأمل لأنّ هذا هو شأن الربانيين الذين لا يقطعون حبال الرجاء من كرم اللّه، مهما ادلهمّت الظلمات، ومهما كانت هناك جبال تنتظرهم من المهمات، ومهما كان الضعف في الوسائل والإمكانات[٢].

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٢.

(٢) انظر محمد الغزالي - الدعوة الإسلامية في القرن الحالي ص، ١٧٩، ١٨٠ (بتصرف) ط١ ١٤٢١، دار الشروق مصر، وانظر عبد الكريم بكار: مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، ص ١١٣ بتصرف، ص ٣٣.

إننا لا يجوز أن نفهم أحاديث الفتن وغربة الإسلام فهماً خاطئاً، ولا سيما وقد واستقر في بعض الأذهان أن الفتن حكر على الفصل الأخير من رواية الإنسانية، وأن المسلمين سوف يواجهون آخر الزمان جزراً لا مدَّمعة، وأدواء لا أدوية لها.

وهذا جهل كبير، فالواقع أن أحاديث الفتن لا يجوز أن يقرأها العامة، ولا أرى أن يقرأها إلا المختصون في علل المجتمعات وأطوار الأمم وأسرار التاريخ، وإن الحديث عن غربة الإسلام ليس حديثاً عن مستقبل دين كما يتوهم بعض الناس، ولكنه حديث عن عرض يعرو الدين حيناً، ثم يذهب بذهاب أسبابه.

ونستطيع أن نؤكد أن البعث يجيء وللحق أنصار شداد وألوية مرفوعة وكتائب تحميه وتقرّر هيبته وتستبقي كتابه العزيز، إن هذا ما ينضح به قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وأمام هذا الأمل القرآني الرّباني يجب أن يتوارى اليأس من حياتنا ولا سيّما وأنّنا لن نكسب من وراء اليأس إلا انحسار الذات وخمود النشاط وارتباك الوعي.. ومن المهم في هذه الظروف الصعبة أن تستخرج الإيجابيات وخمائر الإصلاح والصلاح، أما تعداد السلبيّات فهذا يستطيعه كلُ أحد، إنّ النقد ليس الكشف عن المصائب فحسب، بل الكشف عن مساحات الخير والجمال أيضاً، إن جزءاً من انتصار

(١) سورة الروم: آية ٥٦، وانظر الشيخ محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية في القرن الحالي ١٨٠.

الإسلام لن يكون بالجري وراء العالم لإصلاحه. ولكن بعودة العالم إليه بعد انسداد السبل أمامه، وإنّ الوقت يعمل لصالح هذا الدين، وإنّ علينا أن نتعلم فضيلة الانتظار [١].

في ظل ظروف الهيمنة العولميّة الصهيونيّة الأمريكيّة والحرب العالميّة على الإسلام (بأساليب التدرّج والالتهام قطعة قطعة وليس بأساليب الحروب الصليبيّة القديمة).. في ظل هذه الظروف من الضروري إنشاء رابطة تتجه إلى الأمّة المسلمة كلهّا، - أكثريّات وأقليّات - لنزع اليأس، وزرع بذور الأمل وتحقيق الوحدة حول مبدأ العمل ﴿اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسوله﴾... ومبدأ اليقين بأنّ نصر اللّه قادم ﴿إن تنصروا اللّه ينصركم﴾ حتى ولو كنا مجرّد (عصا موسى)!!.

٩ - تحجيم مشكلات الماضي الفكرية طريق للتوحد الثقافي المعاصر:

لا ينطلق التخطيط للمستقبل من فراغ، فلابد من معالجة مشكلات الماضي الجاثمة على صدر الحاضر، حتى ينطلق التخطيط إلى تحقيق أغراضه بأيسر السبل، دون أعباء يحملها على كاهله!!.

ومن المعروف أنّ أوروبا مثلاً قد وقعت بين أقطارها حروب دينيّة امتدّت قروناً، كما أن الحربين العالميتين قامتا بين أجزاء أوروبا.. وعلى ذلك سعت أوروبا، مع بقاء أجزائها على ما هي عليه ديناً كاثوليكياً أو بروتستانتياً أو أرثوذوكسيّاً، ومع لغات مختلفة - إلى التوحيد، وقطعت

(١) د. عبد الكريم بكار - مرجع سابق، ص ٣٣

في ذلك شوطاً بعيداً يمثل نموذجاً للنجاح العقلاني المصلحي المتدرّج... والأمر قريب من هذا بالنسبة للعرب والمسلمين، فلا يمكن للعرب أن يحلوا مشاكل المستقبل، إلا إذا حلوا المشاكل التي أورثهم إياها الماضي... ولا أظن أن هناك من يستطيع أن يجادل في أنّ الماضي يشكّل في الوعي العربي الراهن عنصراً محورياً في إشكاليّاته، ومن السذاجة إغفاله أو القفز فوقه.. وهل نحتاج إلى التذكير بأن كثيراً من المسلمين يتقاتلون بدوافع ترجع إلى ذكريات من الماضي، مثل ذكريات الصراع السياسي الذي خلدته الحرب بين علي ومعاوية رضي اللّه عنهما؟

وإذاً: يجب البدء بإزالة الضباب عن رؤيتنا للماضي كي تتضح أمامنا معطيات الحاضر ومعالم المستقبل، ويجب أيضاً التخطيط لثقافة الماضي، كي نستطيع التخطيط لثقافة المستقبل بوعي صحيح غير شقيّ [1].

والحقّ أننا مطالبون بإعادة كتابة تاريخنا الثقافي العربي والإسلامي بشكل جديد، يدفع إلى وضع مناطق الصراع والخلاف في إطارها كتعبير بشري، يمثل جزءاً هامشياً محدوداً بالنسبة لنسيج تاريخنا وحضارتنا التي ظلت - كما يقول وُول ديورانت - الحضارة الأولى في العالم لأكثر من عشرة قرون...

ومن المؤسف أنّ كثيراً من المعاصرين ممن يكتبون التاريخ الثقافي العربي والإسلامي ما يزالون يركزون على هذه المعابر الخلافية حتى يبدو تاريخنا الثقافيّ والحضاريّ مجّرد اجترار وتكرار وإعادة إنتاج

(١) د. محمد عابد الجابري: المسألة الثقافية في الوطن العربي ص ٣٠ - ٣٢ نشر مركز دراسات الوحدة العربية طبعة ٦ بيروت ١٩٩٩ (بتصرف).

بشكل رديء للتاريخ الثقافي نفسه، الذي كتبه بعض أجدادنا تحت ضغط صراعات العصور التي عاشوا فيها...

وبالتالي مازلنا سجناء للرؤى والمفاهيم والمناهج القديمة التي وجهتهم، فتحكمت في إنتاجهم، مما يجرنا، دون أن نشعر، إلى الانخراط في صراعات الماضي ومشاكله، وإلى جعل حاضرنا مشغولاً بماضينا، وبالتّالي النظر إلى المستقبل بتوجيه من مشاكل الماضي وصراعاته، فنحن إذاً في حاجة إلى إعادة كتابة التاريخ الثقافي العربي بروح نقدية وبتوجيه من طموحاتنا في التقدم والوحدة [1].

ولئن كان الغرب الأوروبي المعاصر - في ظل نموذج وحدته السياسية والاقتصاديّة - يسعى إلى تجاوز مشكلات الماضي وهي أليمة وعميقة، من أجل الحاضر والمستقبل القائمين على الثقافة الأوروبية المشتركة، التي تنتمي إلى الإطار المسيحي المهلهل المتناقض التركيب والبعيد عن الأعماق الوجدانية والفكريّة الحقيقيّة، ومع ذلك يسعى إلى إشعال جذوته والنفخ في بقايا رماده - في ضوء علمانية ماسونية لادينية - متمسّكاً بالأباطيل اللاعقلانية التي يحفل بها العهد القديم - بخاصة.

فكيف لا نعمد - نحن المسلمين - إلى إنشاء مراكز تخطيط استراتيجية، ومستقبليّة، تعمد إلى البحث عن العناصر الثقافية المشتركة، وتسعى - بجهود كلّ المعاصرين الممثلين للماضي - إلى إبراز شُعَب الإيمان الواحدة، وإلى فكّ الألغاز الخلافية، وترك النقاط

(١) المكان السابق : بتصرف.

الفكريّة التي لا يمكن حلّها الآن - مرحلياً - (كبعض آراء الشيعة مثلاً - كنموذج) استلهاماً من النسق الأوروبي التوحيدي،.... وصولاً إلى وضع قواعد يقبلها جميع الممثلين للماضي الإسلامي، الذين يعيشون الحاضر، ويسعون لصناعة مستقبل أقل تشرذماً، وأهدأ صراعاً، وأكثر تعاوناً وتكاملاً، في إطار أننا - كمسلمين - بعيداً عن صراعات الماضي، وخلافات الحاضر - مستهدفون جميعاً من جانب ، وتواجهنا تحديات انبعاث ونهضة مشتركة من جانب آخر!!

إن الأمر يجب أن يتجاوز التقريب بين المذاهب الفقهيّة الفرعية، فهذا أسهل الأمور، ولم يعد هذا الخلاف مشكلة في ضوء تطّور الوعي الإسلامي، وإنما يجب أن يتّجه الأمر إلى صراعاتنا الكلامية العقدية، وإلى كلّ عوامل صداماتنا التاريخية، تارة باسم التعصّب لرموز معينة، أو لمنحى معّين في النظم السياسية والفكرية، أو في تقدير حقوق آل البيت أو صحابة رسول اللّه (رضي اللّه عن الجميع)...

إن على هذه المراكز والجمعيّات والمؤسسات العاملة في هذا الطريق العظيم، أن تفكّ كلّ هذه الألغاز وفق مفاهيم يرضى عنها الجميع، وتلتزم بها الكتب الدراسية، والوسائل الإعلامية، وتعقد من أجل تعميقها مؤتمرات وندوات مشتركة، وتقام - كذلك - دراسات أو دوريّات تتابع توجيه الوعي نحو معالم هذا الطريق الذي اتفق عليه جميع ممثلي الأمة...

ومن الضروري أن يكتب التاريخ الإسلامي كتابة جديدة وفق هذا المنهج.

١٠ - مشروعات ثقافيّة إسلاميّة لدمج الثقافات القوميّة

في كل الحضارات والدول تجد - غالباً - أقليّات تختلف ديناً أو عرقاً أو لغة عن الدين السائد والعرق واللغة السائدين.

ومن المعروف أنه من الضروري أن يتحد الإطار الكبير على الاعتراف بحقوق الأقليات، شريطة أن تنسجم الأقليّات مع ثوابت المجتمع، وألا تحاول التحزّب من أجل السيطرة أو التمزيق.

ومعروف أن كل بلاد العالم - حتى الكبيرة منها كالصين والهند وأمريكا- تفرض بالقانون التناغم بين ما هو عام - مشترك - وما هو خاص بالأقليات.

لكن في فترات الضعف - كالفترة التي تمر بها أمتّنا الإسلامية الآن وبعوامل خارجية أيضاً - تعمد الأقليات إلى انتهاز الفرصة لتمزيق حضارة الأمة، وهذا من جملة ما يؤرق أمتنا في عهود الاستقلال بصفة خاصة، أي منذ ستّة عقود تقريباً.!!

ومن منظوره القومي الذي يتعانق مع الإسلام يرى الأستاذ محمد عابد الجابري أن الحل لمشكلة التعدد الثقافي الراجع إلى تعدد الأقليّات في الوطن العربي لن يكون حلاً قومياً حقاً إلا بتوسيع دائرة الثقافة العربية القومية كيما تضمّ بين جنباتها الثقافات القومية الأخرى، وهذا يتطلب مراجعة مفهوم (الثقافة القومية) العربية [١].

---

(١) محمد عابد الجابري: المسألة الثقافية في الوطن العربي ص ٣٥.

لكننا نرى أن المفهوم الأشمل والأوسع هو مفهوم (الثقافة الإسلامية) ثقافة الأمة الواحدة التي عرفت باستيعابها لكل القوميات والوطنيات، وتناغمت برؤية حضارية تؤمن بالتعدد في إطار الثقافة المؤمنة الواحدة.

وفي نظرنا فإن البداية الفعلية للثقافة القومية العربية، الثقافة العربية الإسلامية، بوصفها المقوم الأساسي للشخصية العربية وللوحدة العربية، كما نتحدث عنهما اليوم، إنما هي عصر التدوين وليس العصر الجاهلي، ففي عصر التدوين تم بطريق الترجمة والاقتباس دمج الموروث القديم الضخم، المتعدد المتنوع، الذي خلفته الثقافات القديمة البابلية والفينيقية والسريانية والمصرية الإسكندرانية اليونانية في الثقافة العربية الإسلامية الواحدة [١]. وأما ما كان قد تبقى من العناصر الحية أو القابلة للحياة في الثقافات القديمة السابقة على الإسلام فقد اندمج بصورة أو بأخرى، خلال عصر التدوين وبعده، في الثقافة العربية الإسلامية، الشيء الذي يعني، أن الدعوة للارتباط بالفرعونية أو الفينيقية أو الآشورية وغيرها أصبحت منذ عصر التدوين، دعوة غير ذات موضوع، ولا تحمل أي بُعد تاريخي[٢]، وهي أقرب ما تكون إلى الخيانة للحقيقة، وللحضارة العربية الإسلامية، واستجابة فجة لعوامل التمزيق الخارجية!!.

ولكي تنتصر ثقافة الأمة الإسلامية والعربية على عوامل التمزيق الموجهة من الثقافات المعاصرة، يجب أن تُعَرَّب وتؤصل إسلامياً كل

(١) الجابري: المرجع السابق، ص ٧.
(٢) الجابري: الموقع السابق ص ٣٧.

الثقافات الأخرى، انطلاقاً من التعريب الذي وقع في عصر التدوين، ولا يعني تعريبها استحداث إناء جديد لها، فهي قد صُهرت فعلاً خلال الأربعة عشر قرناً المنصرمة، لكن المطلوب هو عدم إلغائها، بل إحياء المشترك الأصلي بينها وبين العربية، وإحياء صفتها الإسلامية التي تفخر كل الثقافات القومية - غير الموجهة - بها.

١١ - وأخيراً: ملاحظات على الطريق:

نؤكد هنا أن الاختراق الثقافي الذي يمارس على الصعيد الدولي من طرف الغرب بقيادة أمريكا قد أصبح استراتيجية ترمي إلى (شن حرب باردة حضارية على الإسلام) على حد تعبير المحللين الأمريكان أنفسهم، وهذا يوجب استنفار كل الطاقات الثقافية والإيجابية في الأمة لتدافع عن عقيدتها ومشروعها الحضاري، لأن الثقافة - في المفهوم السائد - تتصل بكل جوانب الحياة من عقائد وقيم وأخلاق وعادات وتعامل مع الكون والحياة والإنسان، ولئن كان للاحتكاك الحضاري مع الحضارة الأوروأمريكية وجوه إيجابية، فإن علينا - كذلك - أن نبحث عن الوجوه السلبية التي لابد من الوعي بها وإلا سقطنا ضحية الغفلة والوهم لنفيق في يوم من الأيام على واقع تصعبُ معالجته وإعادة بنائه[1] فالغفلة والانبهار لا تصلحان في التفاعل الحضاري الموضوعي.

ومن هنا يجب التأكيد على أن يكون التجديد مستمَداً من (الداخل) - أي من ثوابتنا - مستفيداً من الإيجابي الخارجي، ولا يكون العكس،

---

(١) الجابري: الموقع السابق، ص٢٠٩، ٢١١.

فنحن أمة لنا دين شمولي النظرة لا يترك جانباً من الجوانب إلا وله فيه توجيه، ولا يصلح معه ترك الدنيا لقيصر أو للماسونية والعلمانية اللتين تفصلان بين الدين والدولة، وبين الدين والدنيا...

وحبذا أن يتحد العاملون للإسلام والحاملون للهم الإسلامي العام حول قضية محورية هي (الانبعاث وتحقيق النهضة بطريق الإسلام) بعيداً عن كل صور التمزق المذهبي والقومي والوطني، منطلقين في انبعاثنا من داخل الكتاب الكريم والسنة الصحيحة، تاركين المساحات الأخرى للاجتهادات المذهبية المحلية.. عاملين على نبذ كل ما يخالف الكتاب والسنة عند كل طائفة، عن طريق (نقد الذات) والتواصي بالحق (والدعوة بالحكمة).

ولعلنا نحلم باتحاد تشترك في عضويته هيئات العمل الإسلامي على غرار اتحاد هيئات الإغاثة الإسلامية... ويكون من أهم ما يقوم به هذا الاتحاد توحيد هذه الحركات تحت قيادة واحدة، ومنع الفتنة حتى لا يقع بأسهم بينهم، وتأليف القلوب التي استمرأت أن تحمل الخلافات والعداوات، وتخطي حالة التجزئة ودول التجزئة التي تمسك بخناق الحركات الإسلامية وتجعلها عدواً ثابتاً؛ مهما أبدت من مرونة والالتفاف - بالتالي - حول قضية فلسطين، كقضية - أولى - يجب أن تقف وراءها كل القضايا الأخرى، ويجب أن يُعلن الجهاد العام من أجلها، لأن فلسطين مسؤولية كل مسلم [1]، والسكوت عنها توطئة

(١) منير شفيق: الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر ص ١٩٥، ١٩٦ نشر الزهراء للإعلام العربي ط٢، ١٤١٣، مصر (بتصرف).

لاقتحام كل مقدساتنا، وبلادنا، وهي قضية مركزية تلتقي حولها الأمة، وتصلح طريقاً لتوحيدها.

ومن الجدير بالذكر أنّ من أهمّ وسائل تحقيق الوحدة الثقافيّة إقامة محطّات إرسال سمعية وبصرية عبر الأقمار الصناعيّة تشرف عليها المنظمة الإسلاميّة للثقافة (الأيسيسكو)، تكون موجهة لخدمة الثقافة، وتعميم المنجزات الثقافيّة العالمية ذات الطابع الإنساني الهادف لخدمة البشرية.

وكذلك تخصيص مواقع كبيرة على الإنترنت لهذه الأهداف نفسها، بلغات متعددة، وفي مقابل الاتحادات الوطنيّة والقوميّة يجب أن تنشأ اتحادات إسلامية فيكون هناك (اتحاد للناشرين المسلمين) و(اتحاد المؤرخين المسلمين) وثالث (للاجتماعيين المسلمين) ورابع (للإعلاميين) وهكذا.

ومع ذلك كلّه - يبقى الباب مفتوحاً لمشروعات عمليّة كثيرة، يتعاون فيها العمل الشعبي والرسمي، ويكون فيها للمؤسسات العالميّة الإسلامية كمنظمة المؤتمر الإسلاميّ ورابطة العالم الإسلاميّ وجامعة الدول العربيّة والأيسيسكو نصيب يليق بمكانتها ورسالتها.

واللّه نسأل أنّ يتحقّق هذا في القريب، وهو على ما نقول شهيد.